

"دور التربية الاجتماعية وأنساقها الثقافية في البناء الحضاري في فكر "مالك بن نبي"

The role of social education and its cultural patterns in the construction of civilization in the thought of "Malik Bennabi"

المؤلف الأول*¹ حسين مبرك

جامعة محمد بوضياف المسيلة hocine.mebrak@univ-msila.dz

	ملخص
تاريخ الاستلام: 2025/11/26 تاريخ القبول: 2025/12/27 الكلمات المفتاحية: البناء، التغيير، الحضارة، الثقافة، الفعالية.	ما من شك أن مالك بن نبي هو مفكر صاحب مشروع حضاري متكامل، يقوم على تصور واضح لعملية بناء الإنسان، وتخطيط محكم لتغيير المجتمع، وفهم عميق لمقومات البناء الحضاري، ووعي بشروط النهضة، وهذا البناء الحضاري - في نظره - هو ثمرة للتفاعل بين عالم الأفكار وعالم الأشخاص وعالم الأشياء، ومن ثم لا يمكن تصور إنجاز حضاري دون ثقافة، أي دون تأثير عامل الأفكار في هذا الإنجاز، ذلك أن كل تطور حضاري لمجتمع ما، هو وليد لفعالية الأفكار والثقافة، ومنه فإن كل بناء حضاري هو في أساسه قيمة ثقافية مجسدة على أرض الواقع.. وقد حاولنا من خلال هذا المقال مقارنة مشروعه، وتسليط الضوء على منطلقاته ومساره وغاياته.
Key words: building, Change, Civilization, Culture Effectiveness	Abstract There is no doubt that Malik Bennabi is a thinker who owns an integrated civilization project, based on a clear vision of the process of building the human being, a solid planning to change society, a deep understanding of the foundations of a civilized building, and an awareness of the conditions of renaissance, and this civilization construction - in his view - is the fruit of interaction between a scientist Ideas, the world of people and the world of things, and therefore it is not possible to imagine a civilized achievement without a culture, that is, without the influence of the ideas factor in this achievement, because every civilized development of a society is the result of the effectiveness of ideas and culture, and from it every civilized building is basically an embodied cultural value. On the ground .. Through this article, we have tried to approach his project and shed light on its starting points, path, aand goals

¹ المؤلف المرسل :

مقدمة:

استطاع مالك بن نبي أن يصوغ مشروعا حضاريا متكاملا، بعد أن انكب على دراسة الأوضاع في البلاد الإسلامية، فشخص كل الأزمات التي عصفت بها، ورصد العلل والاختلالات التي نخرت جسمها، وأصابها بالوهن وألحقت بها الهوان والتخلف والانحطاط.. وقد حلّل وعلّل ووصف الحلول، وقدم البدائل لهذه المشاكل، معتمدا على منهج موضوعي علمي، يؤيده فكر نير فاحص، ورؤية ثاقبة عميقة، ووعي نافذ، الأمر الذي سمح له بتأسيس وإرساء مشروع نهضوي، يقوم على معرفة الذات وقراءة الماضي والحاضر قراءة متبصرة واعية وإيجابية، ورسم الأهداف الكبرى، ووضع الخطط المحكمة لعملية البناء الحضاري، الكفيلة بتحقيق التنمية الثقافية والاجتماعية، وضبط مجال الرؤية، للتحرر من رواسب التقليد والجمود والحمول التي استحوذت على عقول ونفوس الأفراد والمجتمعات، وأورثتهم صفات الاستهلاك والابتذال، وسدّت أمامهم آفاق الانبعاث والتجدد والإبداع في شتى المجالات.

1- دور التربية في تأسيس مشروع بناء الإنسان: وفي سياق البناء الحضاري، يتجلى دور التربية، ويبرز أثرها في تفعيل ورفع منسوب الوعي الاجتماعي، الذي يسهم في تحويل القيم والمفاهيم والتصورات الصحيحة إلى بنيات ثقافية واجتماعية فاعلة ومؤثرة، تسهم في تحصين الفرد والمجتمع من حالات الغيبوبة والحمول والتوحش، وتنشله من شبح اللامبالاة وتبلد الإحساس، والعجز عن النهوض من الكبوت والعثرات، والانقطاع عن الرغبة في التجدد والتطور.. " وهذا يقتضي أن نفكر في المجتمع بتفكير بناء وليس تفكير تكديس، لأن التكديس في المجتمع ظاهرة مضرّة، وهذه تظهر حتى في الأفكار .." (1)

وقد تناول "مالك بن نبي" في مشروعه الحضاري قضية بناء الإنسان و تأهيله باعتباره محورا لهذا المشروع العظيم، ومركزا لكل نهضة أو حركة تستهدف تطور المجتمع وترقيته إلى الأفضل، انطلاقا من تغيير الإنسان وتعبئته بطاقات وقيم وأفكار إيجابية وبناءة، تسمح له بالتحرر من السلبية والذهول والانبهار والتقليد والاستهلاك التي حالت دون تقدمه، وبلوغ أهدافه في سياق التدرج والتطور والبناء الحضاري الذي يبنى على أسس ومقومات تستمد قوتها وقيمتها من عناصر ذاتية للمجتمعات، قادرة على إحداث التغيير المنشود وتحرير الطاقات وتحسيد الأفكار في شكل مشروع مجتمع، قوامه التربية الفاعلة والثقافة الخصبة المتجددة، ومن ثم فإنّ الفاعلية التربوية الجديرة بالاهتمام، هي تلك التي تضطلع بتعبئة الفرد بقيم وطاقات تدفعه نحو التحرر والانطلاق، وتتيح له أن يخترق جدار الانحطاط والرداءة والتخلف، وكل مظاهر الفساد والضعف التي ألفت بالمجتمعات الإسلامية في هاوية الإفلاس والتبدد، وحرمانها من التطور والتجدد، والعجز عن

¹ مالك بن نبي: حديث في البناء الجديد، حضارة الإسلام، ص1، العدد الثالث، دمشق، سوريا، سبتمبر 1960، ص139

بناء مشروع حضاري، إذ لا يمكن أن نتصور بناء مشروع نهضة على أساس الاعتماد على ما تنتجه الحضارات الأخرى من منتجات، ولكنّه نسقٌ متحوّل يستمدُّ قوامه ووجوده من ذات المجتمع وهويته، وهذه النسق هو مجموعة قيم ومعايير تُمثّل الأطر المرجعية للمجتمع .

1-1- تأصيل مفهوم الحضارة

لعلّ الهاجس المركزي الذي ظل يؤرق "مالك بن نبي" في حياته ، هو مشكلة الحضارة بكل تشعباتها وسيقاتها ومفاهيمها وأبعادها، لهذا نراه يقول : "إن المجتمع لا يعاني عندما تحل به أزمة سوى مشكلة واحدة وهي مشكلة حضارته في طور من أطوارها " (1)، ومن ثم راهن "مالك بن نبي" في مشروعه على مسألة الأفكار وإنتاجها وتحويلها إلى فعالية وقوة محرّكة مؤثرة وخلاقة مولدة للإيجابية على مستوى التفكير والعمل والتخطيط، لا على مستوى ما تملكه المجتمعات من إمكانيات وقدرات مادية، يقول : "إن ما يُعرّض مجتمعات ما للخطر أثناء المنعطفات الأكثر حسما في تاريخها لا يعود إلى ضعف الإمكانيات بقدر ما يعود إلى الفقر المدقع الذي تعانيه في أفكارها " (2)، وعلى هذا الأساس راح "مالك بن نبي" يؤصل للمفهوم الصحيح للحضارة، من حيث هي مشروع مرتبط ارتباطا وثيقا بالقيم التربوية والثقافية الراسخة في بنية المجتمع النفسية والذهنية والعقلية والوجدانية، لأن الحضارة عنده هي : "في جوهرها عبارة عن مجموع من القيم الثقافية المحققة " (3) - على المستوى الاجتماعي، الأمر الذي يستوجب في نظره ضرورة الاهتمام بالبناء، لا التكديس والتراكم والاستكثار من الحفظ والتكرار والتّرديد على مستوى المفاهيم والأفكار والتّصورات، بل ينبغي التعويل على التّبصر والفرز والوعي والتّمحيص وممارسة التّقد والمراجعة، في سياق التّغيير والتّجدد والبناء الحضاري، وهو ما أشار إليه بقوله : "نفترض أنّنا كدّسنا عناصر البناء لعمارة معينة فأتينّا بمئات الأطنان من حجر وإسمنت وخشب وحديد، فإنّنا لا نستطيع أن نقيم من هذا التّكديس بناء، ولو بعد مئات السنين، بينما لو سلّكنا طريق البناء، فإنّنا في شهر واحد بنينا على الأقل شقّة واحدة " (4)، ومن ثمّ لا يمكن أن نتصوّر قيام حضارة على دعائم ومقومات مادية فحسب، إذ لا بد أن تُبنى على قاعدة صلبة من الخطّط والنّظم والقيم المرجعية ذات الصلة بالمنظومة التّربوية والثقافية، مؤكّدا ذلك بقوله : "إنّ الحضارة هي التي تلدّ مُنتجاتها، وسيكون من السّخف والسّخرية أن تُعكس هذه القاعدة حين تُريد أن تصنع حضارة ما من منتجاتها " (5)، ومن ثمّ فإنّ

¹ مالك بن نبي: قيم ومفاهيم، مجلة الفكر الإسلامي، لبنان، عدد 67، 1973، ص23

² مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مستقاوي وعبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1979، ص41

³ مالك بن نبي: حديث في البناء الجديد، حضارة الإسلام، ص52

⁴ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص41

⁵ المصدر نفسه، ص42

الاعتماد على منجزات حضارة الآخر، إنما يَصُبُّ في خانة التفكير بعقله، والتكلم بلسانه، بل هو " عبارة عن تحصيل لهيكلها وجسدها دون رُوحها" (7)، وهذه الرُّوح هي اللَّبُّ الذي يُغني عن المظاهر والقشور، وهي الفكرةُ الفاعلة التي تُترجمُ إلى فعل وممارسة على أرض الواقع ، " فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة ، لا التكديس " (1)، فالتكديس هو إخلالٌ بالنظام، والتخطيط ، واستبعادٌ للفكرة، واستحضارٌ للارتجال والعشوائية والفوضى، وسيُزْخو الإخفاق والتخلف والعمية، وهذا هو الناموس الذي يحكم الوجود والكون، باعتبار أن الأشياء تخضع لمبدأ السبب والنتيجة، فالسبب يؤدي إلى النتيجة وليس العكس " لأننا لو حاولنا هذه المحاولة فإننا سنبقى ألف سنة، ونحن نكدس ثم لا نخرج بشيء " (2)

1-2- مقومات البناء الحضاري: إن عملية البناء الحضاري ليست شعارات وبديهيات ونماذج جاهزة ساكنة مكرورة ومتشابهة، تنير العواطف، ولكنها وظيفة حيوية يضطلع بها الفرد والمجتمع، لأن الحضارة " هي جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يُوفّر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه " (3). ولعل ما يُكسب أبحاث "مالك بن نبي" ودراساته في موضوع الحضارة والنهضة قيمة وأهمية أنه خبيرٌ بالثقافة العربية، عارفٌ بتوجهاتها ومدارسها وفلسفاتها واع بسياقاتها التاريخية والاجتماعية والثقافية، الأمر الذي أتاح له معالجة مشكلات الحضارة التي سبّأها مُشكلات العصر، وما يعانيه المجتمع الإسلامي من تخلف فكري وأزمات اجتماعية واقتصادية وثقافية واستبداد ، ومن ثمّ ألح وأكد "مالك بن نبي" على ضرورة ألا يقف الإنسان من الأشياء والحياة موقف المستهلك، أو المقلد التابع لغيره ، بل لا بُدّ من اضطلاع به بدوره وإسهامه في التغيير الاجتماعي وصنع الحياة ، باستغلال طاقاته وقدراته الذهنية والنفسية ، والتكيف مع عصره، وما يفرضه من رهانات وتحديات، لأنه لا يليق بالإنسان الجديد أن يكون ناقلا للمفاهيم مُتلقفا للنظريات والمقولات والمناهج التي تُلقى بها التيارات الفكرية والمذاهب الأدبية والاتجاهات السياسية المختلفة المشارب والأهداف، وهو ما عالج "مالك بن نبي" من خلال كتبه ومؤلفاته، مثل : "شروط النهضة"، "مشكلة الثقافة"، "وجهة العالم الإسلامي"، و"مذكرات شاهد على القرن"، و"مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، وقد ردّ "ابن نبي" أسباب تخلف المسلمين إلى عامل نفسي وعامل تاريخي، كان لهما أثر بالغ في فقدان المسلمين للفعالية، وهي ظاهرة ارتبطت بالاستعمار الذي تسبّب في سُقوط البلاد الإسلامية، وحال دون انخراطها في حركية التاريخ وتفاعلات الحضارة.

¹.مالك بن نبي: حديث في البناء الجديد، ص52

².المصدر نفسه: ص52

³.مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مكتبة عمار، القاهرة، مصر، 1971، ص38

1-3- المكوّن الثقافي: وفي السياق نفسه، أشار "مالك بن نبي" إلى أثر الثقافة في عملية بناء الإنسان، والثقافة - في نظره - تقوم على الجانب الأخلاقي كنسق اجتماعي، والجانب الجمالي والتنظيم، بالإضافة إلى الجانب العلمي أو ما يسمّى بالأفكار العلمية، والبراغماتية الإيجابية.

ومنه فإنّ جنين الحضارة، لا بدّ أن يتغذى من تربة خصبة غنية بمواد مستخلصة من عناصر وقيم تربوية وثقافية، لذلك فإنّ المشكلة التي تتخبط فيها الأمة، هي أزمة حضارية عصفت بالمجتمع، فأفقدته الرؤية الصحيحة، وحجبت عنه الهدف، فلم يتبيّن معالم الطريق، وظلّ يراوح مكانه مرّة، ويتراجع تارة ويدخل في قطيعة مع ماضيه وحاضره، هي أشبه بالغيوبة، لذلك فالحلّ ينبغي أن يكون جذرياً، في ضوء نظريته الرباعية المشهورة: الإنسان، التراب، الزمن، والفكرة المركبة، مع أنّ الإنسان هو جوهر هذه النظرية ومحورها الذي منه ينطلق كلّ تغيير اجتماعي

2- تعالق الأخلاق بالتربية وأثرهما في تأسيس الفعل الحضاري:

لعلّ بناء الإنسان هو عملية في غاية الدقّة والأهمية والصعوبة، بحكم أنّها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعملية التربوية التي تلعب دوراً حاسماً في فعل البناء الحضاري، وقد صاغ "مالك بن نبي" هذه النظرية البنائية بأبعادها الثقافية والتربوية، على غرار ما يستوفقنا من أفكار ونظريات تربوية وسلوكية وثقافية في كتابات بعض الفلاسفة والمفكرين، مثل: روجيه غارودي و"برتراند رسل"، وهو التوجّه الذي تبنته المدارس التربوية الحديثة، حين أكّدت على أنّ النظم التربوية السائدة في مجتمع ما هي المسؤولة عن حالة تخلفه بالمفهوم الشامل⁽¹⁾، ومن ثمّ ذهب "مالك بن نبي" إلى أنّ أيّ إخفاق سياسي أو اختلال اجتماعي أو نكوص أخلاقي وعلمي أو تأزم اقتصادي أو عسكري، إنّما هو الدليل التّاجع عن درجة أزمته الثقافية⁽²⁾، وبهذه الرؤية استطاع أن يخلص إلى أنّ قيمة مجتمع ما في فترة ما من تاريخه، لا تُقاس بما يملك من أشياء، وإنّما بقيمة ما يملك من أفكار⁽³⁾، والمقصود بالأفكار هو تلك الأفكار الثّيرة النّابضة بالحياة القابلة للتّجسيد على أرض الواقع، فتتحوّل إلى فعل وقوة وحركة، ومن ثمّ فإنّ أيّ تفكير في مشكلة الحضارة، هو تفكير في مشكلة الثقافة⁽⁴⁾.

وفي الاتجاه ذاته تتجلى لنا فكرة جوهرية عند "مالك بن نبي" مؤداها أنّه لا يمكن فصل البعد الأخلاقي التربوي عن مفهوم الثقافة، ومن ثمّ فهو يميّز بين ما يُسمّى الأفكار الزائدة النّابضة بالحياة القابلة للتّجسيد على أرض الواقع، وبين الأفكار العلمية، لذلك اكتست الثقافة -

¹ يوسف نور عوض: نقد العقل المتخلف، بحث في أزمة الوجود الحضاري عند فقراء العصر التقني، دار القلم، بيروت، لبنان، 1985، ص 17-18

² مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط4، دمشق، سوريا، ص92

³ انظر: مالك بن نبي: فكرة كومولث إسلامي، ترجمة: الطيب الشريف، دار الفكر، ط2، الجزائر، 1990، ص53

⁴ مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1979، ص144

عنده - مفهومًا وظيفيًا عمليًا ، بعيدًا عن المفهوم الكلاسيكي ذي الطابع الفلكلوري الذي يُفرغ الثقافة من محتواها الحقيقي ويُحوّلها إلى ممارسات سخيفة جوفاء تُؤخّر ولا تُقدّم، وتهدّم ولا تبني، وتُفسد ولا تُصلح، ومن ثمّ لم تُعد الثقافة ذات بُعد نظري شكلي، بل لا بُدّ أن تضاف إليها وجهة النظر العملية أو التربوية⁽¹⁾، لتستحيل بهذا المفهوم عملية تستهدف طبع الإنسان على جملة من القيم والصفات التي تبني شخصيته وتُتمّي طباعه، وتُصقل غرائزه، وتُهدّب ذوقه ، وهو ما أشار إليه في قوله : " هي مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته، كراشمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، فهي المحيط الذي يُشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته " (2)، ولا انفصام عنده بين الثقافة التي تُمثّل عالم الأفكار وبين عالم الأشياء والإنسان، فضلا عن شرط التراب أي الرقعة الجغرافية وعامل الزمن ، وهي الشروط التي تؤلّف نظريته الشهيرة التي صاغها ضمن مشروع النهضة . لكن يظلّ الإنسان هو مركز هذه النظرية البنائية، فلا قيمة لباقي الشروط ولا جدوى منها، ما لم تنطبع في نفس الإنسان القيم التربوية والثقافية التي تجعله قوّة فاعلة وإيجابية، ومن ثمّ وجب الاستثمار في الإنسان وتأهيله وبناءه حتّى يقوى على الخلق والإبداع، وتكون لديه القابلية للتجدد والتطور والنهوض، وقد كان "مالك بن نبي" من المفكرين الذين عالجوا هذه المسألة بروح علمية وفكر متّزن ومنهج موضوعي، فلم يغفل البعد التربوي والثقافي والأخلاقي في صياغة مشروعه الحضاري، على نحو ما نلقاه عند : "روحيه غارودي"، و "برتراند رسل" وغيره ... وهاهو الباحث الروسي "فلاديمير ماكسيمينكو" يقر بفضل سبق "مالك ابن نبي" في هذا المجال ، حيث يقول : " إنّ مهام التفهم للماضي والتحرر منه في آن واحد، وضرورة محاربة التقليدية والتطلع إلى خلق ثقافة جديدة، كلّ هذا يقود العديد من ممثلي الانتلجانسيا المغاربية إلى مشكلة الإنسان الجديد، مشكلة الشخصية الجديدة، وهو - إلى ذلك - من أوائل من طرحوا هذه المشكلة فيما سّماه مغرب ما بعد الحرب، إن لم يكن هو الأول. ولم يقدم "ابن نبي" صورة تعميمية للإنسان الجديد، بل تكمن أهميته في رسم السمات المميّزة للإنسان القديم وإشارته إلى علاقة تطور الشخصية بمشكلة الانبعاث الوطني⁽³⁾، ومن ثمّ فإنّ التربية هي التي تضطلع ببناء الرأسمال البشري.

لكن لا ينبغي أن نتصوّر أنّ هذه التربية تُؤخذ في شكل دروس مُوجّهة ومحاضرات تُلقى على الجموع، أو خطب ومواعظ تُلقن للأجيال، بل هي قيمٌ ينبغي تسوّد وأسلوب حياة، ومنهج تفكير، وعلاقات مؤثّرة في وسط تتفاعل فيه هذه القيم والنظم وينصهر مع الفرد والمجتمع، كما يستوقفنا في كتابات "مالك بن نبي" أمرٌ لافتٌ، وهو أنّه يستخدم كلمة الثقافة مُحمّلة بالبعد التربوي والأخلاقي، مثلما يستخدم التربية وقد أضفى عليها طابعا ثقافيا، معتبرا أنّ الثقافة دون تربية وأخلاق هي مجرّد أطر وأنساق دون روح، والتربية دون ثقافة هي سيرٌ

¹ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 38

² مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 90

³ فلاديمير ماكسيمينكو: الانتلجانسيا المغاربية - أفكار ونزاعات، ترجمة: عبد العزيز بوباكير، دار الحكمة، الجزائر، 1984، ص 147

وحركة دون هدف، ولا فكرة، يقول: "التربية أشمل من التعليم، تستهدف إحداث تغيير جذري في أنماط التفكير والسلوك معا، لا مجرد تغيير كمي في الحصيلة المعرفية، فهي العملية التي يتم بواسطتها تحويل الإنسان ككل من كونه فردا إلى أن يصبح شخصا بتحويل صفاته ونزعاته البدائية الطبيعية والغريزية التي تربطه بالتنوع إلى صفات ونزعات اجتماعية وثقافية تربطه بالمجتمع، وإخضاع طاقته الحيوية إلى عملية تكيف اجتماعي منظم، من خلال عملية تركيب نفسي لعناصر ثقافة المجتمع في المباني أو البنى الشخصية لأفراده.."⁽¹⁾، ومن ثم فإن مشروع بناء الإنسان هو المدخل الطبيعي والحقيقي لإحداث التغيير الاجتماعي، وتحقيق البناء الحضاري الشامل، من خلال التربية الحضارية التي يتشربها عبر وسطه الاجتماعي، لذلك لا يمكن فصل البعد الثقافي عن الجانب التربوي، لأن علاقة الفرد بالمجتمع هي علاقة تأثير وتأثر متبادلة، ومن ثم فإن عملية تغيير المجتمع تقتضي تغيير الإنسان، وعملية تغيير الإنسان تستلزم --هي الأخرى-- تغيير المجتمع، وباتت هذه النظرية محل اهتمام من قبل علماء الاجتماع والخبراء وعلماء التربية والمتخصصين في العلوم الإنسانية، الذين راحوا يبحثون في حياة الإنسان الاجتماعية، ويصوغون قوانين تطورها الثقافي واللغوي والتربوي والسياسي والاقتصادي والديني والفكري والفني "إذا تغيرت البيئة كان لابد من ملائمة جديدة للكائن، وهذه الملائمة باستمرارها تحدث تغييرا فيه، وتنقله إلى طور جديد، إلى أن يحدث تغيير في البيئة.."⁽²⁾، وفي سياق تحليله لحركة المجتمعات وسيورها، يعرض "مالك بن نبي" تجارب بعض الدول في هذا المجال فيذكر المجتمع الياباني كنموذج للنجاح في بناء نهضة صناعية واقتصادية واجتماعية، رغم الظروف الصعبة التي مر بها، وعاشها تحت نير الاستعمار، في حين أخفقت المجتمعات العربية والإسلامية من حيث نجاح اليابانيون رغم أن الظروف الاستعمارية واحدة، وتفسير ذلك "أن اليابان قد بنى مجتمعا متحضرا، فهو قد دخل الأشياء من أبوابها وطلب الأشياء كحاجة، درس الحضارة الغربية بالنسبة إلى حاجته، لا بالنسبة إلى شهواته، فلم يصبح من زبائن الحضارة الغربية يدفع لها أمواله وأخلاقه، أما نحن فقد أخذنا منها كل رذيلة، وأحيانا نأخذ منها بعض الأشياء الطيبة التي قدرها الله لنا"⁽³⁾، لذلك ينبغي دراسة اتجاهات التطور في كل مجال من مجالات الحياة، لمعرفة الوجهة الصحيحة التي يجب أن نتمم وجوهنا نحوها، ونذكر الطريق الذي يجب أن نسلكه، ونحدد الهدف الذي ينبغي أن نصل إليه، فنتجنب الانحراف والزيف، ولا يتأتى لنا ذلك كله، إلا بعد أن نهني أنفسنا، ونستعد لخوض معترك الحياة، ونتحكم في أسباب وعوامل إحداث التغيير والتجدد التي تسمح للإنسان بالنهوض والتطور وبناء مجتمع متقدم، باعتبار أن كل مشروع تربوي ثقافي وحضاري لا ينبغي على تخطيط محكم، ورؤية واضحة، وأهداف محددة فمصيره إلى فشل، لاسيما في عصر العولمة والنظام العالمي الجديد، حيث بات "التلاعب بأفكار المجتمعات وتوجيهها إلى

¹ مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط3، ص 31

² أحمد المبارك: الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط3، 1973، ص82

³ مالك بن نبي: حديث في البناء الجديد، ص51

حيث يُراد، علماً مُتسقاً، له دوائره وعلماءه ومؤسساته، وحين يُؤلف كتاباً في مثل هذا الموضوع عنوانه اغتصابُ ضمير المجتمعات " (1)، لذلك لم تعد التربية مجردَ مادة تعليمية نظرية حبيسة المدرسة ، تُحفظ تعاريفها ومفاهيمها بمعزل عن الشأن الاجتماعي وحراكه، وحاجات الفرد ومطالبه، وقضايا الأمة ومصالحها التي تُحقق من خلالها وجودها، وتثبت ذاتها وتمارس دورها في الحياة، بما يضمن لها حياة الرخاء والاستقرار والتطور ، بل غدت عملية حيوية، لها دورٌ كبيرٌ في تحقيق مشروع البناء الحضاري، و" تكوين الإنسان الذي يتمتع بأقصى حدود الفعالية وتقوية شبكة العلاقات أو الروابط الاجتماعية " (2)، كما تُسهم في عملية تأهيل الفرد وتحقيق فعاليته وإيجابيته، وضمان تماسك البنية الاجتماعية، وترشيد أنماط السلوك وضبط الممارسات داخل نسيج المجتمع، وهو ما أشار إليه بقوله: " إن مشكلة الثقافة من الوجهة التربوية هي في جوهرها مشكلة توجيه الأفكار، ولذلك كان علينا تحديد المعنى العام لفكرة التوجيه، فهو بصفة عامة: قوة في الأساس وتناغم في السير ووحدة في الهدف ... فهناك الملايين من السواعد العاملة والعقول المفكرة .. المهتم أن نُدير هذا الجهاز الهائل في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية .. وفي هذا تكمن أساساً فكرة توجيه الإنسان الذي يكتسب من فكرته الدينية معنى الجماعة ومعنى الكفاح " (3) .. وظلّ "مالك بن نبي" في كلّ طُرُوحاته، يُؤكّد على الفعالية التي تبقى جوهرَ الفكرة ولُبّها ونتائجها، وهي العامل الحاسم في خلق دينامية الفرد وإبداعه، وحركية المجتمع و إنتاجيته، لذلك فإن " أيّ إنجاز حضاري هو في أصله قيمة ثقافية خرجت إلى حيّز التنفيذ أي الوجود بالفعل، وبالتالي فإنّ الجوهر الموجود في الأول موجودٌ بالضرورة في الثاني " (4). والملاحظ في كتاباته أنّه لا يكتفي بالتّظهير وسرد الأفكار المجردة، ولكنه مُفكّر يُحلّل الفكرة بعمق ، ويستقصيها بأسلوب علمي يُفسّر الظّاهرة، ويُعلّل الأسباب والنتائج ويقارن بين المسائل والآراء، ويضرب الأمثلة والشواهد التي يُؤكّد بها صحّة تفكيره ومنهج، فنراه -لذلك- يُورد -في كلّ مرّة- قرائن من الواقع الاجتماعي والثقافي للمجتمعات التي يدرسها ، فنراه يربط الفكرة بالفعالية، ربط السبب بالنتيجة. يقول : " فلو أنّنا حلّلنا واقعا اجتماعيا، أي نشاطا اجتماعيا محسوسا.. مثل بناء مدينة أو مستشفى أو جسر أو سدّ أو تعبيد طريق أو تهيئة حديقة، فسنعده ينطوي في حالته الرّاهنة أو في اطراد تطوره على أربعة عناصر ثقافية أساسية هي : المبدأ الأخلاقي والذّوق الجمالي والصّناعة أو العلم والمنطق العملي ... فكلّ ناتج حضارة هو في جوهره مُركّبٌ من هذه العناصر الأربعة " (5)، فالفعالية هي التي تحمل الإنسان على الانتقال من الفكرة إلى الممارسة ومن النظري إلى التطبيقي، ومن القيمة إلى الفعل، ومن المفهوم إلى الرؤية، إلى جانب الشروط الأخرى التي تُشكّل نظرية الفعالية ، التي تُحقّق

¹. سعيد جودت: حتى يُغيّروا ما بأنفسهم، دمشق، سوريا، 1993، ص194-195

²مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص94

³مالك بن نبي: شروط النهضة، ص78

⁴مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية، ص147

⁵.المصدر نفسه: ص147-148

أي إنجاز حضاري، أي الفاعلية الإنجازية⁽¹⁾، تنضاف إليها العناصر والشروط الأخرى التي من شأنها تحقيق البناء الحضاري، ويمكن تلخيصها في هذه المعادلة التي تتشكل من "دوافع الإنجاز أو الفعل وعلم الفعل وسرعته وشكله"⁽²⁾، أما القيم الأخلاقية فهي الموازين التي تضبط سلوكيات وتصرفات الأفراد وتجعلها متسقة ومنسجمة ومتجانسة، وهي إلى ذلك باعث ومحرك ومفجر ومنظم ومكيف للطاقة الحيوية لدى الإنسان⁽³⁾، أما التربية من خلال التذوق الجمالي، فهو وجه آخر للبناء الحضاري، هذا الذوق الجمالي، هو مقياس للجودة والتنوعية في كل شيء: في الفنون والآداب والثقافة والفلسفة والاجتماع، لذلك لا يمكن تصوّر حضارة أمة أو مجتمع في غياب قيم الجمال والحق والخير "فحتى بعض القيم الخلقية كالإحسان تمثل صورة نفسية للجمال"⁽⁴⁾، بل إن الجمال هو عنوان للرفق والرفعة، وآية على صحة النفس والعقل، ورمز للمجد الوطني، بل هو "وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا ونفرض احترامنا"⁽⁵⁾.

2-1- صلة العقل الواعي بالتربية البناءة:

إنّ العقل الواعي هو ثمرة للتربية البناءة، وتجلّي فاعليته على مستوى الأداء، من خلال قياس الأشياء بمقاييسها، ووضعها في نصابها، وربط الفعل بأسبابه ونتائجه "فالإنسان المسلم ينقصه منطق العمل وليس منطق الفكرة، وهو يتحدث تبعاً لمبادئ القرآن لكن لا يعيش طبقاً لها"⁽⁶⁾، وكذلك أمر العلم والتعليم لا يمكن فصله عن قيم الأخلاق، حتى لا يستحيل إلى مجرد نظريات خاوية من مضامينها، فارغة من محتوياتها، منفصلة عن سياقاتها، لا تلبث أن تتفانى قبل أن تؤدي وظيفتها في بناء الإنسان الفاعل، لذلك ينبغي أن نوطن التعليم ضمن السياق الثقافي الاجتماعي العام، يقول: "لسوف تخيب آمالنا التي عقدناها إذا ما عوّلنا في قضيتنا على العلم الذي نتعلّمه في المدارس الرسمية وغير الرسمية.. ولقد نعلم أنّ الحلّ الوحيد منوط بتكوين الفرد الحامل لرسالته في التاريخ"⁽⁷⁾. وقد جنت علينا هذه الظاهرة السلبية، وأورثتنا آفات وسلبيات فاحشة أحلت بفهمنا للمشروع الحضاري في شقه العلمي، الأمر الذي أدى إلى ظهور أشباه المتعلمين والمتعلمين

¹ حسين آيت عيسى: الفكر التربوي عند مالك بن نبي، جسر للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2017، ص41

² المرجع نفسه: ص41

³ انظر: مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص81

⁴ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص84-85

⁵ المصدر نفسه: ص85-86

⁶ المصدر نفسه، ص85

⁷ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص98-99

وأصناف المثقفين وأدعياء العلم، لذلك نادى "مالك بن نبي" بضرورة إزالة هؤلاء المرضى حتى يصفو الجوُّ للمُتعلِّم والطَّالِب الجادّ الذي يعرف معنى العلم ومعنى الثقافة⁽¹⁾، ولا شك أنّ هذه الشروط والعناصر والأبعاد تتكامل فيما بينها لبناء الإنسان الجديد الفعّال، لذلك ينبغي أن ندرك شروط البناء الحضاري، ونتبيّن عناصره، ونتحكّم في عوامله وأسبابه، قبل أن نُفكّر في الحضارة ذاتها، وهذا هو شأنُ كُلِّ مشروع يُرادُّ له أن يكون حيّا مُنتجا ومتطوّرا، وهو ما توقّف عنده "مالك بن نبي" بقوله: "إنّ أوّل ما يجب علينا أن نُفكّر فيه حينما نريد أن نبني حضارة، أن نفكّر في عناصرها تفكير الكيمياوي في عناصر الماء إذا أراد تكوينه، فهو يُحلّل الماء تحليلا علميا ويجد أنّه يتكوّن من عنصرين: عنصر الأيدروجين وعنصر الأكسجين، ثمّ إنّ بعد ذلك يدرس القانون الذي يتركّب به هذان العنصران ليعطينا الماء، وهذا بناءٌ ليس بتكديس" (2)

خاتمة:

لقد انطلق مالك بن نبي في مشروعه الحضاري من قراءة نقدية واعية للتّجارب والأنساق الحضارية، من أجل التأسيس لفكر نخضوي إسلامي، معتمدا على قراءاته الواعية العميقة والمتبصرة، واستيعابه الشامل والعميق للمرجعية الإسلامية وتفاعله الواعي والمتبصر للمناهج والأفكار الوافدة، معتبرا أنّ مهمّة التّربية هو الاضطلاعُ بتشبيد الإنسان من الداخل، وترميمه وإعادة تأثيثه وتأهيله من جديد، وتحويل طاقات المجتمع إلى وظيفة اجتماعية مبنية على قواعد خلقية صحيحة وتنشئة الفرد تنشئة اجتماعية قويمةً ومُتّزنة، وضبط سلوكه وأفعاله، وهذه التّربية الاجتماعية ليست أمورا نظرية وقواعد مجرّدة، إنّما هي قيمٌ أخلاقيةٌ وثقافيةٌ نابعةٌ من صميم المجتمع وتاريخه، موضوعها الفرد، ومضمونها تغيير الفرد، باعتبار أنّ كُلّ ما يحدثُ تغييرا في الفرد، يغير المجتمع، وكُلّ ما يبني الفرد يبني المجتمع وكُلّ ما يهدم الفرد يهدم المجتمع، ومن ثمّ فالتّربية في مشروعه الحضاري، هي إعدادٌ وتشكيلٌ لقيم ومهارات الأفراد، بما ينسجم وحاجات البناء الاجتماعي.

المراجع:

1- (مالك بن نبي)، 1960، حديث في البناء الجديد، حضارة الإسلام، دمشق، سوريا، ع3، سبتمبر. 1960.

¹ انظر: مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص75-76

² مالك بن نبي: حديث في البناء الجديد، ص53

- 2- (مالك بن نبي)، 1973، قيم ومفاهيم، مجلة الفكر الإسلامي، لبنان، عدد 67، فيفري، 1973.
- 3- (مالك بن نبي)، 1979، شروط النهضة، دار الفكر، ط4، دمشق، سوريا.
- 4- (مالك بن نبي)، 1971، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مكتبة عمار، دط، القاهرة، مصر.
- 5- (يوسف نور عوض)، 1985، نقد العقل المتخلف بحث في أزمة الوجود الحضاري عند فقراء العصر التقني، دار القلم دط، بيروت، لبنان.
- 6- (مالك بن نبي)، 1979، مشكلة الثقافة، دار الفكر، ط4، دمشق، سوريا.
- 7- (مالك بن نبي)، 1990، فكرة كومنولث إسلامي، دار الفكر، ط2، الجزائر.
- 8- (مالك بن نبي)، 1979، فكرة الأفريقية الآسيوية، دار الفكر، دط، دمشق، سوريا.
- 9- (فلاديمير ماكسيمينكو)، 1984، الأنتلجانشيا المغاربية أفكار ونزعات، دار الحكمة، دط، الجزائر.
- 10- (مالك بن نبي)، 1971، ميلاد مجتمع، دار الفكر، ط3، الجزائر.
- 11- (أحمد المبارك)، 1973، الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، دار الفكر، ط3، بيروت، لبنان.
- 12- (سعيد جودت)، 1993، حتى يغيروا ما بأنفسهم، دط، دمشق، سوريا.
- 13- (حسين آيت عيسى)، 2017، الفكر التربوي عند مالك بن نبي، جسور للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر.